مجالات البحث في جانب الإعجاز البياني واللغوي في القرآن الكريم

أ.د/ أحمد سيد محمد(*)

المعجزة أمر خارق للعادة أنزله الله على يد نبي تصديقاً لدعوته، ويختلف الناس حول تصديق المعجزة وإنكارها أو الإذعان بها أو عدم الإذعان لها تبعاً لموقفهم من صاحب المعجزة، وهذا يعني أن المعجزة ترد لموقف من المواقف أو زمن معين محدود، وكان هذا هو الشأن مع الأنبياء، فموسى عليه السلام يلقي عصاه يوم الزينة فتتحول إلى ثعبان يأكل ما فعله السحرة الذي خيّل إليهم من سحرهم أن ما ألقوا به سوف ينصرهم في هذا الموقف، وينتهي تأثير المعجزة بما وقع من أحداث في ذلك اليوم، وإيمان بعض السحرة برب هارون وموسى، وهكذا كان الشأن مع إبراهيم عليه السلام وغيره من الأنبياء.

وأمَّا معجزة محمد عليه السلام، فهي القرآن الكريم الذي يختلف عن سائر المعجزات بصفة الاستمرارية والديمومة في عصره وما تلاه من عصور، حتى يرث الله الأرض ومن عليها، ومن هنا اهتم المسلمون بدراسة هذه المعجزة وراحوا يفسرون الإعجاز فيها، فمن قائل بالصرفة، ومن قائل بالإعجاز اللغوي والبياني، ومن قائل بالإعجاز العلمي.

وعلى امتداد أربعة عشر قرناً وجهود الباحثين تتابع في قضية الإعجاز وظهرت كتب متعددة تعالج هذه القضية من أهمها : في متشابه القرآن للكرماني، ودرة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي، وميلاد التأويل لابن الزويل صفحة (١) الطاهر ابن

(*) أستاذ ورئيس قسم اللغة العربية بكلية التربية ـ جامعة عين شمس ـ مصر.

عاشور، وفي ظلال القرآن للشيخ سيد قطب، وإعجاز القرآن والبلاغة النبوية لمصطفى صادق الرفاعي، والتفسير البياني للقرآن للدكتورة بنت الشاطئ.

ومنذ نزول القرآن وتحديه العرب أن يأتوا بمثله أو بشيء منه وعجزهم عن ذلك، وأقوال الباحثين تتباين في تفسير سر ذلك الإعجاز، فقال النظام: إن الإعجاز كان بالصدفة وهي أن الله صرف العرب عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها فكان هذا الصرف خارقاً للعادة، وقال المرتضي من الشيعة: معنى الصرف أن الله سلبهم العلوم التي يحتاج إليها في المعارضة ليجيئوا بمثل القرآن، وقال الجاحظ: إن القرآن في الدرجة العليا من البلاغة التي لم يعهد مثلها.

وبعض الفرق يقولون إن وجه الإعجاز في القرآن هو ما اشتمل عليه النظم الغريب المخالف لنظم العرب ونثرهم في مطالعه ومقاطعه وفواصله، وبعضهم يقول: إن وجه الإعجاز في سلامة ألفاظه مما يشين اللفظ كالتعتيد والاستكراه، وآخرون يقولون بل ذلك في خلوة من التناقض واشتماله على المعاني الدقيقة، وجماعة يذهبون أن الإعجاز مجتمع من بعض الوجوه التي ذكرت.

وأما الرأي المشهور في الإعجاز البياني الذي ذهب إليه عبد القادر الجرجاني صاحب دلائل الإعجاز المتوفى عام ٤٧١ للهجرة.

ومذهب آخر لطائفة من المتأخرين وهو أن وجه الإعجاز ما تضمنه القرآن من المزايا الظاهرة والبدائع الرائعة في الفواتح والمقاصد والخواتيم من كل سورة، وفي مبادئ الآيات وفواصلها قالوا والمعول على ثلاث خواص:

١ـ الفصاحة في ألفاظه كأنها السلسال.

٢ـ البلاغة في المعاني بالإضافة إلى مضرب كل مثل ومساق كل قصة في الأوامر والنواهي.

٣- صورة النظم، فإن كل ما ذكر من هذه العلوم مسوق على أتم نظام وأحسنه، فالإعجاز في القرآن كله؛ لأن القرآن كله معجز وهو معجز لأنه معجز.

وهذا الجانب من الإعجاز يبقى ما بقيت اللغة التي نزل بها، وكلما استحدث علماؤها شيئاً في مقوماتها، أو اكتشفوا نظام أبنيتها وخصائصها اتسعت أمام الباحثين هناك الإعجاز العلمي والذي خطا فيه الباحثون خطوات واسعة بفضل تقدم البحوث والدراسات والاكتشاف العلمية ولاسيما في هذا القرن وما سبقه، ومن ثم فإن مجال البحث في هذا الجانب من الإعجاز القرآني ليظل متصلاً ومنسقاً باتساع دائرة مجالات البحث العلمي، ومن ثم فإن هذا الجانب من الدراسة يمكن أن يوصف بأنه يتميز بالخصوبة والتجديد وربما كان مجال الإبداع فيه أيسر من الجانب اللغوي والبياني.

فهل يعني ذلك أن دراسة الإعجاز البياني واللغوي في القرآن الكريم اختص بها أسلافنا الذين أقاموا عدة دراسات عرفت بعلوم القرآن، وأدلى فيها كثير من الباحثين بأدلائهم على مر العصور؟

إن تطور اللغة العربية في عصرنا هذا تطور بطئ لأسباب تاريخية وثقافية ليس هنا مجال البحث فيها، وعلوم البلاغة العربية التي قامت عليها دراسات الإعجاز البياني في القرآن الكريم والتي ارتبطت عبر عصورها الزاهرة بمقاييس النقد الأدبي أصيب بالجمود في مرحلة من مراحلها التاريخية ثم عادت تندمج في أطر جديدة من خلال ما تدعو إليها بعض النظريات النقدية.

والمناهج التطبيقية كالأسلوبية وطريقتها في تذوق النص ، وعلى الرغم من كل ذلك فإن اتجاهات الباحثين من هذا المجال ينبغي أن تتوجه إلى البحث عن مظاهر الإعجاز البلاغي والتعبيري من خلال ما تقول به نظريات النقد المعاصر، ولا شك أنهم واجدون مجالات خصبة لإبراز هذا الجانب في لغة القرآن الذي ظل معجزة دائمة بكل مقاييس الإعجاز على مر الدهور.